TIGHT BINDING BOOK

كاترين الثانية

في جزءين

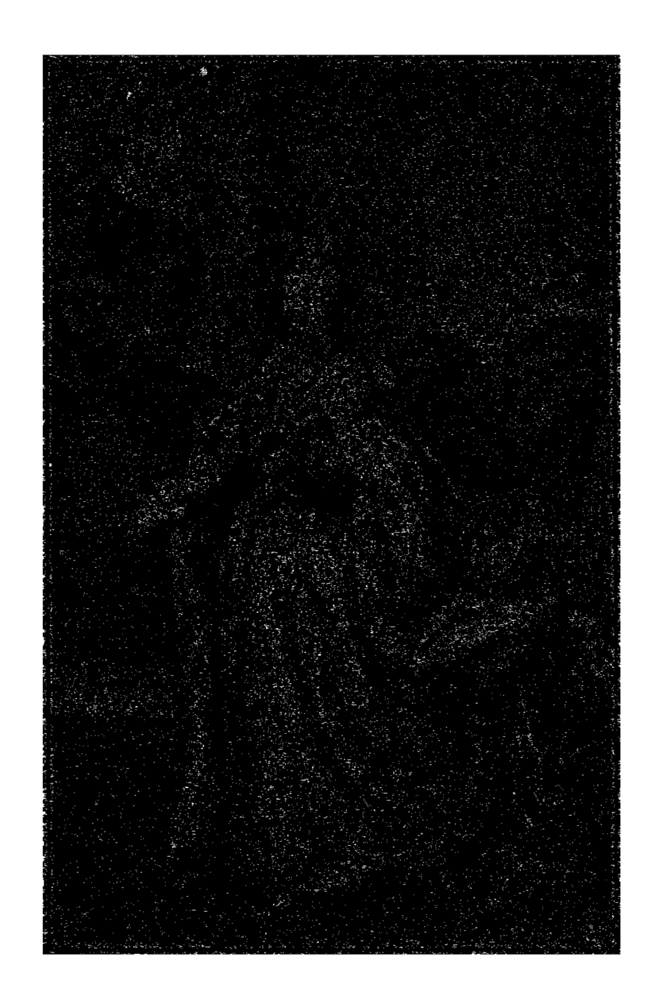
اشهر الخاطئات من صاحبات التيجان

قصة تاريخية

ترجمت خصيصاً

لمجلة الهلال

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢٢



كاترين الثانية

في اواخر ايامها

كاترين الثانية

اشهر الخاطئات من صاحبات التيجان

قصة تاريخية

ترجمت خصيصاً

لمجلة الهلال

مطبعة الهلال

سنة ١٩٢٢

كاترين الثانية من اشد النساء امتيازاً في التاريخ . فاذا التمست لها نظيراً وجب ان تبحث عنه في التاريخ القديم . فكما ان اغسطس قد أقام عظمة روما فقد أنشأت كاترين من روسيا دولة من أشهر دول أوربا وأقواها . فروسيا مدينة لها بروحها الوطني . لأنها حققت حلم بطرس الاكبر ، فجمعت القبائل والاجناس المبعثرة وجعلت منها كتلة متشابهة الاجزاء

ولقد كان من المستحيل أن تتم وحدها مثل هذا العمل ، ولكن الفضل يرجع اليها حين استكشفت واختارت أعوانها . وهؤلاء الوزراء والقواد الذين حفظت أسماؤهم بجانب اسمها في تشييد الامبراطورية الروسية لم يزيدوا على ان ائتمروا بامرها . بل كان بوتمكين نفسه وهو الذي امتاز بالابتكار متأثراً بالهامها فيما يعمل

لم تكتف بايجاد امبراطورية . بل ادارتها . وعلى الجملة فقد عملت في روسيا ما قام به معاصرها فردريك الكبير في بروسيا لحضرتها

ولقد يكاد يكون مستحيلاً ان نعطي صورة صادقة لهذه الملكة التي سماها كارليل « لويس الرابع عشر أنثى » وهو اسم اكثر ملاءمة لها من هذه الاسماء التي أعطاها لها المعجبون بها مثل « نجمة القطب » و « سميراميس الشمال » أو التي أعطاها لها أعداؤها

مثل « ميسّالين » (١) و « مرسيه » (٢)

ولما فكرت مدام « فيجي لبران » في أن تصور الامبراطورة نصح لهـا ناصح ان تصورها على خريطة روسـيا . ومع ذلك فهناك امرأتان مختلفتان تشخصهما كاترين : احـداهما كاترين موجدة الامبراطورية ، حامية الفنون . وثانيتهما كاترين المستهترة ، العاشقة ، الخاطئة الحسناء ، تلك التي وقفت قصصها وراء أستار التاريخ . بالمرأة الثانية وحدها نعنى الآن

ولدت « صوفيا أوجستا فردريك دنهالت زربست » في سنة ١٧٢٩ بمدينة « ستيتن » من مدن بروسيا . ولم تسمَّ باسم كاترين الذي عرفها به التاريخ الا وقت زواجها بغراندوق الروس اذ منحتها اياه الكنيسة الارثوذكسية

كانت أسرة « دنهالت » بروتستنتية لوثيرية . ولم تكن اصولها قديمة ولا مشهورة . ومع ذلك فقد كان لهـا امتياز الاقتران بالاسر المالكة . ومع انها كانت تابعة لملك بروسيا فقد كانت لهـا السيادة في بلادها

وفي سنة ١٧٢٩ كان لهذه الاسرة أربعة فروع ، أصغرها وأقلها فرع زربست . ولم يكن زعيمه الامير « كرستيان أوغست » الا « ماجور جنرال » في خدمة ملك بروسيا يشـغل منصب القائد في

---

(١) احدى زوجات الامبراطور الروماني كلود عرفت بالدعارة والفجور وقضي عليها بالموت لذلك

(٢) من أشخاص الاوديسية كانت ساحرة فتنت أودسيوس وأصحابه لا لغرض الا للفجور والفسق

مدينـة «ستيتن» وكان رجل جد وضمير خبيراً باعمـال الحرب يملكه شعور أعمى بالواجب ، ذلك الشعـور الذي كان يمتاز به القواد البروسيون في عصره . وفي رأي سـفير فرنسا في بطرسبرج وهو الداهية المركيز دي لاشاتاردي «انه كان رجـلا طيباً ولـكن على طريقته هو . غير ان حمقه كان عديم النظير»

كان لامرأته «جان اليزابت دي هُولِسْتَين جُوتـورْب» بحكم ما لاسرتها من الصلات تأثير عظيم في مستقبل ابنتها كاترين . كانت امرأة لعوباً ميالة الى الدسائس تحلم لابنتها بزوج عظيم الشأن . وفي هذه السبيل عنيت بتربية ابنتها تربية خاصة لم تكن في ذلك العصر مألوفة للاتراب من فتيات طبقتها . على انك اذا استثنيت جمال هذه الاميرة الفتاة ـ اميرة زرْبست ـ لم تجد من خلالها ما كان ينبيء بما ستؤول اليه حالها في المستقبل ولم يكن أحد يشعر بهذه المزايا العقلية التي حملت ديدرو الـكاتب الفرنسي المفتون بها على ان يشبهها بالمصباح يضيء العالم . بل أعلن أحد أساتذتها ان تلميذته لن تكون ابداً الا امرأة عادية جداً . وكان يؤذن لهـا في اوقات الفراغ ان تلهو مع أطفال الشعب في الشوارع او على أسوار المدينة وربما رافقت امها في بعض الزيارات لاهلها من اسرة هولستين . كانت طفولتها متشابهة وقد كتبت فيما بعد الى جريم [١] انها لا تحفظ من هذا العصر أي ذكرى قيمة . ولـكن الحوادث التي كانت تتهيأ في روسيا كانت في

---

(١) ناقد الماني مشهور اشتغل بالسياسة كثيراً واتصـل بأعلى الطبقات الادبية والسياسية في فرنسا والمانيا وروسيا ولد في راتسبون سنة ١٧٢٣ ومات بجوتا سنة ١٧٠٧

الوقت نفسه تعمل على تغيير عظيم في حياتها

لم يكن لامبراطورة الروس « اليزابت » التي اجلستها على العرش ثورة في القصر من ولد . وكانت قد تبنت ابن اختها بطرس هولستين جوتورب ابن خال كاترين

كانت الامبراطورة تود لو اختارت لابن اختها زوجة من قصر فرنسا او النمسا حليفتي روسيا . ولكن القصرين رفضا هذا الشرف الذي كانا يعتقدان انه خطر جداً . واذ كانا مع ذلك يحرصان على حسن العلاقة بينهما وبين الامبراطورة فقد عرضا عليها ان يبحثا عن زوجة ملائمة للغراندوق . فكان هذا العرض اهانة اضيفت الى اهانة الرفض واضطرت « اليزابت » وقد عجز السفراء عن تهدئة سورتها الى ان توجه وجهها شطر ذلك الذي كانت تخشاه جداً ، وهو فردريك الكبير

سر فردريك كل السرور ان يؤدي اليها صنيعة وأشار عليها في الحال بأن تخطب ابنة قائد ستيتن . وكان يعتقد ان نزول الطبقة التي كانت تشغلها الاميرة بين اميرات المانيا سيكفل له شكرها لانه قد رفعها الى مكان ما كانت تحلم به

وعلى هذا علمت كاترين في اليوم الذي أتمت فيه خمس عشرة سنة أن رسالة من امبراطورة روسيا تدعوها وامها الى بطرسبرج . وقد أضيف الى الرسالة ما يحتاج اليه السفر من النفقات . ومع ان سبب هذه الدعوة كان مكتوماً فقد كان الناس جميعاً يعرفونه

فأرادت جان اليزابت التي كانت تحلم لابنتها أحلاماً ساحرة

ولكنها لم تصل قط الى أن تفكر في قصر روسيا أن تسافر فوراً . لم يمانع كرستيان أوغست ولكنه اكتفى بأن تمنى أن ابنته تستطيع بأي طريقة أن تقترن بالغراندوق دون أن تغير دينها . ولأجل ان يقوي ايمانها بمذهب لوثير قدم اليها كهدية سفر كتاباً يبحث فيما تشتمل عليه الارثوذكسية من الالحاد وعلى هذا الكتاب تعليقات بخطه

استغرق السفر شهراً في وسط الشتاء . ولقد كانت أثقال هذا السفر مؤلمة حتى ان الأميرتين اضطرتا في « ميتو » الى أن تنزلا في فندق هو أشبه بحظيرة الخنازير وأخذت جان البزابت تتساءل أكان من الصواب أن تقبل الدعوة الى بلد هذا نصيبه من التوحش

على أن حسن استقبالهما وفخامته في ريغا أحيا آمالها . أنزلتا في قصر بديع الغرف تقوم الحرس فيه على الأبواب فنسيت ما لقيت في ميتو من الآلام . فكتبت الى كرستيان أوغست تقول : « اذا جلست الى المائدة حيتني أبواق القصر وطبول الحرس ومزاميره . ويخيل اليَّ أني احدى افراد الحاشية حاشية جلالة الامبراطورة أو احدى ذوات الشأن من الاميرات . ولا أكاد اصدق ان كل هذه المظاهر متجهة الى هذا الشخص الضئيل شخصي الذي تعود ستيتن ولم يكن له الحق الا في دوي طبلة واحدة »

وعلى العكس من ذلك كانت كاترين تظهر مزدرية كل الازدراء هذه العظمة التي سحرت أمها . كانت تظهر هذه الصفة التي امتازت بها ـ صفة ضبط النفس ـ والتي لزمتها حتى اغتصبت العرش

ومع ذلك فلم تكن أقل من أمها حباً لمظاهر الشرف والجلال .

كانت تشعر بأنها انما وُلدت لتملك وكان هـذا الاقتناع قد رسخ في نفسها منذ أنبأتها عرافة بانها وجدت في يدها ثلاثة تيجان

فلما وصلت الى موسكو كان اول ما أظهروا لها الثكنة التي كانت تقيم فيها فرقة بريوباجنسكي وهي الفرقة التي أجلست اليزابت على العرش

ولقد بلغ استقبالها من العظمة والفخامة أن مرضت جان اليزابت ولزمت السرير . أما كاترين فكانت تظهر مسرورة جداً

وكانت امها تقول : « ان العظمة هي التي تعينها على ذلك » وكان من الممكن أن تضيف — والطمع أيضاً

— ٢ —

كان الغراندوق الروسي خطيب الاميرة دنهالت زربست أميراً قاسداً منحطاً كان قد بلغ من السن ست عشرة سنة . وكان قد ولد ككاترين في المانيا بمدينة كيال

وكانت أمه احدى بنات بطرس الاكبرقد تزوجت أميرهولستين جوتورب وكان هذا الامير قد أقام في هولستين الى أن ارتقت خالته اليزابت عرش الامبراطورية الروسية

ولم يكد يبلغ السابعة من عمره حتى أخذ يتعلم فن الحرب فابتدأ في الثكنات جندياً عادياً ووصل قليلا قليلا الى جميع المراتب التي تنال في هذا الفن . هذه التربية التي كانت تستطيع أن تجعل من الشخص العادي جندياً يستحق الاعجاب تركت في هـذا الامير الفاسد أقبح الآثار . تعلم ايثار الثكنة على القصر وتفضيل الطبقات المنحطة على نظرائه وكان في عقله وآرائه أشبه « بالصول » منه بالمارشال . وتعود أيضاً حب السكر . وكانت تذكر كاترين أنها رأته سكران وهو لم يتجاوز العاشرة حين لقيته لأول مرة في هولستين قبل أن يفكر في اقترانهما بزمن طويل

ويظهر ان وصيه الذي كان سلطانه عليه قوياً كان رجلاً ماهراً في تربية الخيل الجياد لا في تربية الامراء . كان رجلاً غليظاً . فلم يكتف بتشجيع تلميذه على السكر والفساد بل أذاقه ألوان العذاب

فكان يلكمه ويحرمه الغذاء وربما ألزمه أن يجثو ساعات طوالا على الحمص المنثور

ومع أن بطرس هذا قد وُلد لمستقبل سعيد فلم يكن هناك طفل من أبناء الشعب أهمل مثلما أهمل أو لقي من العذاب والاهانة مثل ما لقي . لم يعرف الحب ولا لين العيش ولا العناية التي كانت تحتاج اليها صحته الضعيفة وطبيعته المضطربة . فيسير جداً أن نفهم أن هذه التربية جعلته كذاباً جباناً عنيفاً فاسد الخلق ممتقعاً متمرداً قبيح الخلقة « ذا نفس كثيرة الالتواء في جسم أنهك قبل الاوان »

فلما رأته كاترين لاول مرة أصابها اشمئزاز لا سبيل الى اتقائه . ولكنها اجتهدت في اخفاء ما شعرت به . كانت في الخامسة عشرة ولكنها مع ذلك كانت تعرف مزية اخفاء الشعور وقد مهرت في ذلك وأتقنته فيما بعد الاتقان كله . على أن النفاق كان شيئاً لازماً في قصر روسيا ولولاه لضاعت كاترين . فوازن طمعها ما كانت تحس من نفور واشمئزاز : لم تر في بطرس زوجاً وانما رأت تاجاً

ثم أصابها زكام عقده التهاب رئوي ، وأضيفت اليه سيرة أمها وما قامت به من دسائس سياسية فكاد هذا كله يقضي على آمالها في ان تصبح غراندوقة . ولكنها خلصت من هذا المركز المعقد بتواضعها وحسن تصرفها في الامور

جاءت الى قصر روسيا تطلب اعجاب الناس بها فشعرت بأن السبيل الى ذلك هو أن تصبح روسية . فأخذت تدرس اللغة دون ان تضيع الوقت وكانت عنايتها بذلك شديدة حتى انها كانت تستيقظ

في الليل فتمشي حافية في غرفتها معيدة ما درست في النهار

ونتج عن هذا العمل الليلي مرض جعلها من القبر قيد أصبعين . فلما ظنت أمها انها شارفت الموت ارادت بعد استئذان الامبراطورة ان تستدعي قسيساً بروتستانتياً

فقالت المريضة بصوت خافت : « كلا ليدع سيمون تودورسكي »

لا نستطيع الا أن نعجب بمثل هذا الطلب في مثل هذه الساعة من فتاة في الخامسة عشرة . فقد كان تودورسكي هذا قسيس الكنيسة الارثوذكسية

ألم تثبت بذلك انها روسية من اعماق قلبها اذ ارادت ان تموت على دين الروس ؟

وكان نجاح هذا المكر اول ما احرزت من النصر السياسي . ولم تكد كاترين تبل من مرضها حتى طلبت الى الامبراطورة الشرف في ان تقبل في الكنيسة الارثوذكسية . فقبل طلبها . فأما جان اليزابت التي سارت سيرة اسخطت الامبراطورة فقد امرت بلطف ان تعود الى ستيتن . وزوجت كاترين ببطرس

على ان هذا الزواج قص اجنحة طمعها . كان كل امرىء جاسوساً في مثل هذا القصر الذي كثرت فيه الثورات . وكانت الامبراطورة قد ضربت على الغراندوق وزوجه اشد مراقبة واضيقها

كانت اليزابت رومانوف روسية حقاً ، كلفة باللذات ، تقية ميالة الى الخرافات ، قاسية ماكرة مضطربة الاعصاب . وكانت كما ينبغي ان تكون ابنة بطرس الاكبر طويلة جميلة مهيبة . وقد وصفها الشفاليه

ديون هذا الرجل المرأة او هذه المرأة الرجل الذي اشتهر بالخدمة السرية للويس الخامس عشر كما يأتي :

« اذا لم تزر أنوابك ولم تدرع مقدماً لتتقي تفتيشها اختلست عينها السبيل الى ما تحت أنوابك فجردتك واخترقتك الى القلب حتى اذا شعرت بذلك كان السيف قد سبق العزل وكانت هذه المرأة قد قرأتك الى اعماق نفسك · ليس ما تتصنع من الصراحة وحب الخير الا نقاباً وقد اشتهرت بالحلم في فرنسا واوربا · وفي الواقع انها يوم ارتقت الى العرش اقسمت على صورة القديس تقولا ان لن ينفذ حكم الاعدام على احد اثناء ملكها · وقد برّت بيمينها ولكن اذا لم يسقط رأس اثناء حكمها فقد سلت الفي لسان وقطعت الفي زوج من الآذان· مثل هذا التناقض يوجد في حياتها الخاصة : فاجرة مرة فاتنة مرة اخرى شاكة حتى تصل الى الالحاد مؤمنة حتى تبلغ التهوس تجثو ساعات طويلة امام صورة من صور العذراء تناجيها وتسألها وتستخيرها في اي فرقة من فرق الحرس يحسن ان تبحث لنفسها عن عشيق »

اخص ما يمتاز به خلقها انها كانت مترددة وكان هذا التردد مصدر قوتها . وقد قص البارون دي بروتاي في سنة ١٧٦٠ في رسالة من رسائله انها حين ارادت ان تمضي تجديد المعاهدة التي عقدت مع قصر فينا سنة ١٧٤٦ كتبت اول اسمها « اليـ » ثم انتثرت قطرة من القلم على الورق فوقفت عن الكتابة ومضت اشهر ستة قبل ان تتم الامضاء

ويمكن أن نضيف لتتم صورة هذه المرأة الغريبة انها كانت شهوانية سكيرة . اتخذت أخداناً عدة ولكنها على عكس وارثتها لم تباه بهم . وهي مدينة لاحدهم الطبيب الفرنسي لستوك بفوز المؤامرة التي رفعتها الى العرش . ويجب أن نعلل ضعف صحتها الذي كان مصدر كثير من الدسائس السياسية بإسرافها في حب السكر — هذا الاسراف الذي قضى عليها والى شفتيها كأس من الخمر

لزم الزوجان الهدوء والسكينة تحت هذه المراقبة القوية

كانوا يقولون لاليزابت « ان الغراندوق يمضي أوقاته في أشياء لا تليق بسنه » ، « ان الغراندوق يعيش في صحبة الخدم » ، « ان الغراندوقة كثيرة الصمت . وأهم ما تعنى به درس اللغة الروسية » ، ان الغراندوقة تهمل طقوس الكنيسة الارثوذكسية . وانها تسرف في التودد الى الشبان من سادة القصر بل الى الخدم »

وما أسرع ما استكشف جواسيس الامبراطورة ان الغراندوق لا يكتفي بالاغضاء عن لعب زوجه بل يشجعه ويعين عليه . فاتخذت الامبراطورة لتحسن الاشراف عليهما رقيبة تسمى مدام تشوجلوكوف وكان من واجبها ألا يغيبا عن نظرها ومن حقها أن تدخل غرفتهما حتى أثناء الليل

وقد اصطنعت كاترين ألواناً من الدهاء لتخدع مراقبتها ، حتى سماها زوجها « صاحبة الحيلة » . بل وصلت الى افساد هذه المرأة الفظيعة

كان بطرس سكران في كل يوم . ومع انه كان قد بلغ العشرين

فقد كان يلعب في كل يوم بجنوده الرصاصية حتى في سريره . وكانت سيرته تبعث على أشد الخوف . وقد وجدته كاترين في يوم من الايام وقد لبس ثيابه العسكرية واتخذ المهمز وفي يده سيف مجرد وأمامه فأر قد علق في وسط الغرفة وكان قد قضى عليه بالموت بجلس عسكري من الخدم لأنه أكل حارساً من الشمع كان يحرس قلعة من الورق

ثم نقلت حاشية الغراندوق الى اورنينبوم وهو قصر أعطتـه الامبراطورة للزوجين الشابين ليتخذاه مصيفاً . ومع زوج كهذا لم يكن من الغريب أن تسترسل الغراندوقة في ضروب من الزينة تنبه لها حذر مدام تشوجلوكوف

وكان يمتاز من بين المعجبين بها كبير امنائها سرج سولتيكوف وكان جميلاً كوجه النهار . وقد ظلت كاترين طول حياتها شديدة التأثر بجمال الرجال . بدأت تداعب سولتيكوف عابثة ولـكنها لم تلبث ان هامت به هياماً . وأصبحت صلتها حديث القصر

وشجعها بطرس كالعادة واضطرت الامبراطورة ان تغضي في هذه المرة لاسباب سياسية . فقد كانت كاترين في السادسة والعشرين من عمرها وقد مضى على زواجها عشر سنين ولم ترزق ولداً . فكانت وراثة العرش في خطر . واذ لم يكن لبنت بطرس الاكبر ولد فقد كانت تود لو رزق ابن اختها بوارث . فتركت الحرية المطلقة لـكاترين في ان تلتقي مع سولتيكوف . ولـكن لم يكد يولد الغراندوق بولس حتى نصحت الامبراطورة لسولتيكوف بالسياحة

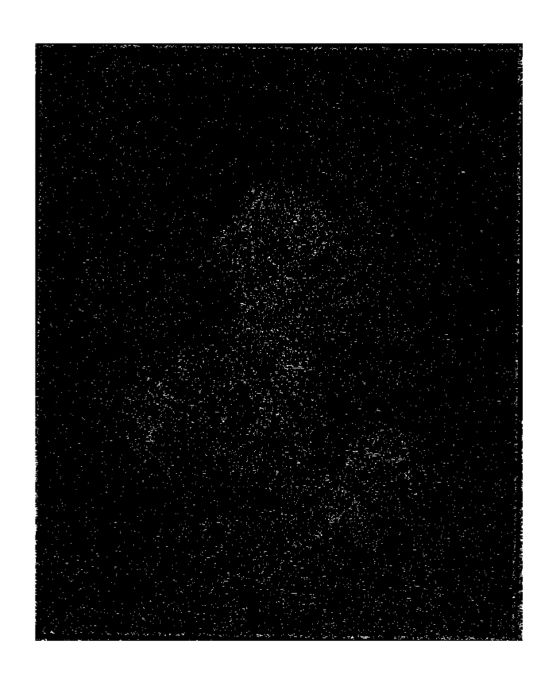
أستبقاء لصحته . وكانت هذه النصيحة تعدل النفي

وقد اختلف في اب الغراندوق بولس . ومع انه كان يشبه بطرس فقد ادعى مدعون أن بيت رومانوف يجب أن يسمى منذ ذلك الوقت بيت سولتيكوف

وكان بطرس يعلم كل شيء ولكنه كان يغمض عينيه . فلما أراد فيما بعد أن يطلق امرأته قضي على نفسه بالموت . وقد ذهبت الظنون في ذلك الوقت الى بعيد حتى أكد ناس ان كاترين ليست ام بولس

وقد كتب سفير فرنسا : « ان بعض الناس يقول ان الغلام ابن الامبراطورة . واذ كانت اليزابت قد انتزعت الطفل من كاترين بمجرد ولادته فقد صدق كثير من الناس هذه القصة »

هذا العصر من حياة كاترين قيم جداً . فقد كانت تنفق أكثر وقتها في القراءة . فبعد ان أمضت سنة في قراءة القصص الفرنسية وصلت الى ڤولتير . ومن ذلك اليوم ابتدأ نموها العقلي العظيم الذي لعب دوراً ذا خطر في ادخال الحضارة الاوربية في روسيا



استانيسلاس بونياتوفسكي

— ٣ —

سافر سولتيكوف فما أسرع ما هدأ حب كاترين . وكذلك كان امرها في الحب دائماً ، فكان البعد يطفىء في الحال اشد نيران الغرام التهاباً في قلبها . لا لأنها كانت تنسى – فلم تنس قط وأحسنت دائماً الى الذين اختصتهم بحبها – انما كان ينتهي حبها ليس غير

وفي أيامها الأخيرة لما استحال حبها الى نوع من المهارة وصم شهرتها وصمة لا تمحى كان كل وجه جديد قادراً على ان يبعث في نفسها شهوة جديدة . اما في ايام شبابها فكان البعد وحده هو الذي يغير الحب

لم يكد صولتيكوف يسافر حتى وصل الى بطرسبرج الشخص الذي كان القدر قد هيأه لتعزية كارين وهو استانيسلاس بونياتوفسكي من اشد اهل القرن الثامن عشر مخاطرة وقوة وجدان

ولم تكن اصوله من جهة ابيه واضحة لان اباه لم يكن من اسرة بونياتوفسكي حقاً وانما كان ابناً غير شرعي للكونت « سابيها » من يهودية بولونية تبنتها اسرة بونياتوفسكي لسبب مجهول . وكان ابن الكونت سابيها ذكي القلب جداً فاستطاع ان يقترن بفتاة من اسرة زارتورسكي التي كانت من أقوى الاسر وانبلها في بولونيا . ومع انه قد رزق ولداً كثيرين فقد أهمل تربيتهم . فلما بلغ استانيسلاس السادسة عشرة ارسله اهله الى « درسد » آملين ان يجد هناك من العمل ما لم يوفق اليه في وارسو. وكان رأس ماله لا يتجاوز جماله وطمعه الشديد في المجد . فلما لم يجد ما احب في درسد تنقل في المانيا ثم وصل الى فرنسا وانتقل منها الى انجلترا

فاتخذ له في باريس اصدقاء اقوياء . ولكن ديناً ألقاه في السجن فانقذته مدام جوفرين الشهيرة لانه زار صالونها واظهر فيه أدباً وحذقاً

فلما سئم هذه التجارب سافر الى لندن حيث مضى خمس سنين في تشرد ثم تحول حظه فجأة

فمع انه كان شديد الفقر كان اسم اسرته يفتح له ابواب الجماعات الراقية . ففي اجتماع من الاجتماعات في سفارة بولونيا لقي صاحبنا هانبوري وليمس من امهر الساسة وأشد الناس حرية عقلية في عصره

ولم يكن من الممكن الا يلتفت مثل هذا الرجل الى استانيسلاس في جماله وشبابه وشكله الذي هو أقرب الى أشكال النساء

فكان هذا الشاب كنزاً حقيقياً عثر به وليمس الذي كان قد عين منذ عهد قريب سفيراً في روسيا . وكان قد تعلم كثيراً في عمله السياسي عن أشخاص القصر في روسيا . كان يعلم أن صحة الامبراطورة كانت ضعيفة وان بطرس كان غير كفء وان كاترين كانت ماهرة . فكان طمعه يحثه على أن يكسب رضا كاترين

وكان يقول في نفسه : « من يدري ، كل شيء ممكن في بلد كروسيا فقد تحدث ثورة في القصر فترفع كاترين الى عرش الامبراطورية ، كما كان ذلك أمر اليزابت »

وكان بونياتوفسكي الرجل الذي يظهر انه سيعينه على اطماعه . وكان وليمس يعرف حب كاترين لسولتيكوف (فقد حكي في القصر انها انتظرته ليلة الى الساعة الثالثة صباحاً فلم يجيء) ولكنه كان يقدر أن هذا الحب لن يدوم : ان النساء سريعات التغير وجمال بونياتوفسكي لا يقاوَم

ولهذا بعد أن ظفر وليمس بحب هـذا الشاب بفضل عطفه عليه حمله معه الى بطرسبرج كسكرتير

فنجحت خطته نجاحاً باهراً: رأت كارين هذا الشاب أدونيس[١] فسحرها جماله. فان بونياتوفسكي اذا لم يكن يعدل سولتيكوف جمالا فقد كان يمتاز بشيء خاص لم تره كارين من قبل عند خدنها الاول وهو المزاج الفني

فقد كان بونياتوفسكي قد عاشر في باريس ولندن أرقى الجماعات. وكان متعلماً قادراً على ان يتكلم عن الفن متحمساً وعلى أن يلم بالادب والفلسفة، وكل هذه موضوعات كانت تسحر الغراندوقة. أضف الى سحر هذا العقل الوضاء شكلاً غريباً كان لا يزال مجهولا في هـذا القصر الهمجي. فازمعت كارين أن تملك قلبه

ولم يكن الشاب البولوني يجهل خطر مثل هـذه القصة ولـكن عشرته لوليمس منحته شيئاً من الجراءة وأحيا الرخاء طمعه القديم. وفوق هذا فقد كان سحر كارين لا يقاوم الا بمشقة

قال بونياتوفسكي في المذكرات التي كتبها في آخر حياته «انها كانت حينئذ في أشد اطوار جمالها قوة وبهجة. شعر شديد السواد ولون يأخذ بياضه بالابصار وأهداب طوال سود وأنف يوناني وفم خلق للقبل. ذراعان ويدان على اكمل صورة خصر نحيل حركات حية علؤها الشرف. صوت عذب وضحك ليس أقل بهجة من أخلاقها وعقل يسمح لها أن تثب من أشد العبث طفولة الى أشد الحساب تعقيداً» ثم اضاف بسذاجة قوله «انه لما نظر الى الغراندوقة نسي وجود سيبيريا»

---

(١) بطل يوناني خرافي كان آية في الجمال عشقته افروديت الهة الحسن

احتاط العاشقان جداً اشفاقاً من المراقبة . ولـكن « صاحبة الحيلة » على شدة مكرها لم تستطع أن تتقي الريبة . فقد وقعت حادثة كادت تقضي على بونياتوفسكي ولـكنهـا أطلعت بطرس على سر العاشقين : كان البولوني قد تعود أن يلج القصر كأنه خياط لاحدى السيدات فاخذ ذات يوم في الفجر وهو يتسلل من قصر أورنينبوم — أخذه الجند وجروه الى حيث الغراندوق

فقال الغراندوق وكان قد حفظ لبونياتوفسكي حباً يعدل حبه لـكاترين : « اجح لي سرك يصلح كل شيء »

فلم تكن سيرة زوجه تعنيه . وكان لها أن تعيش كما تحب ما دامت لا تمانع حبه لخليلته البزاءت فورونتسوف

ويقول سفير فرنسا في وصف هذه المرأة : « ليس من الممكن ان تخيل شيئاً أقبح من وجهها فهي اشبه شيء بخادمة في خان » وقد كان هذا اخص مزاياها عند بطرس . فقد كانت خدينة وصاحبة مستعدة دائماً لتسكر معه

ولئن كان تساهل بطرس مع امرأته مشهوراً شائعاً فقد كان من الواجب ألا يطمأن بونياتوفسكي لذلك ولا يركن اليه . وقد كان أشد قلقاً على عشيقته منه على نفسه فرفض أن يفسر وجوده في القصر صباحاً . فأسخط صمته بطرس وبلغ منه الغضب الفجائي ان كاد يخترقه بالسيف لولا أن اعترض دون ذلك أحد الحاشية

وهنا لجأ بطرس الى المداجاة . فأظهر انه يعتقد أن هذه الزيارة آخر الليل لم تكن خطرة على عرضه بل كانت خطرة على حياته وأمر

أن يسجن بونياتوفسكي . على أن كاترين ظفرت له بالحرية بعد أن بالغت في اذلال نفسها حتى تذرعت الى اليزابت فوروتسوف أن تشفع فيه فأطلق بعد يومين. فتنت فوروتسوف اذ رأت دون قدميها الغراندوقة التي كانت تنظر اليها من قبل مع الاحتقار الشديد فتفضلت بأن أظهرت نفسها كريمة لطيفة ولم يستطع بطرس أن يرد شفاعتها فأتاح الحرية لبونياتوفسكي

ولكن الطريقة التي أتاح له بها هذه الحرية كانت أشد اذلالا واهانة من كل شيء . أحضرت فوروتسوف بين يديه الشاب البولوني فصاح به قائلا : «ما كان أشد حمقك ! فلو انك ائتمنتني على سرك لأصلح كل شيء »

فأصبح من السهل مع هذا أن يسترد البولوني عطف الغراندوق. قال حسن علقه رد اليه لطفه ووداعته فأعلن ضاحكاً :

« الآن وقد اصطلحنا فليس ينقص هـذا العيـد الا شخص واحد »

قال بونياتوفسكي : « ثم دخل الغراندوق غرفة زوجه فجذبها من سريرها دون أن يترك لها الوقت لتضع جوربها أو تتخذ لها رداء وقادها الى الغرفة التي أنا فيها . وقال : « أرجو الآن أن تكونا مسرورين » ثم تناولنا العشاء فرحين وافترقنا في الساعة الرابعة صباحاً »

فلم تكن الغيرة مصدر الخطر اذن وانما كان مصدر هذا الخطر دسائس السفراء الذين كانوا قد شطروا القصر شطرين . ولن يدلك

على تطورات هذا التقسيم السياسي الا ترجمة مفصلة لحياة كاترين . فلنكتف بأن نقول ان العطف الذي كان يسعد به بونياتوفسكي من الغراندوقة والغراندوق وحبه لوليمس الذي كان يريد أن يقنع روسيا بمحالفة انجلترا وبروسيا أوقع الحذر في نفس فرنسا والنمسا . فاجتهدت هاتان الدولتان في ابعاد بونياتوفسكي

ولكن « صاحبة الحيلة » لم يكن من خلقها ان تترك عشيقها ينتزع منها دون جهاد ـ ولقد كانت خصماً خطراً . ثم كانت دسيسة في القصر قدمت اليها ما كانت في حاجة اليه من سلاح . ذلك ان حب الغراندوق لاليزابت فورونتسوف بعث في نفس أبيها الرغبة في ان يكون مستشار القصر . ولأجل أن يصل الى هذه الغاية كوّن لنفسه حزباً كان يؤيده راجياً ان يستفيد من تأثير فورونتسوف على الغراندوق الضعيف الذي كان وصوله الى العرش يوشك ألاّ يكون بعيداً لضعف صحة الامبراطورة

وكان هذا الكيد يخيف جداً المستشار بستوچيف لا سيما وقد أصبح مركزه مزعزعاً بعد انتصار فردريك الكبير على جيوش روسيا

واذ كان بستوچيف يقدر مهارة كاترين فقد اعتقد ان زوجها لن يكاد يصل الى العرش حتى تستأثر هي بالسلطان . فأراد ان يكسب مودتها

فتلطف لبونياتوفسكي وبواسطته أقنع كاترين ان اسرة فورونتسوف أصبحت خطرة وانهما يستطيعان أن يتحدا ليقضيا عليها .

ولهذا يجب ان تحصل كاترين عند موت الامبراطورة على نصيب من السلطة يعدل نصيب زوجها . ومن الواضح ان بستوچيف يحتفظ في هذه الحالة بالاستشارة

ومما لا شك فيه ان مثل هذه الخواطر قد خطرت لكاترين مع زوج كزوجها . ولكن هذه الخواطر اتخذت شكلا واضحاً لاول مرة . وما كان أيسر اقناعها بما عرضه بستوچيف . فلسنا في حاجة الى ان نذكر أطماعها فقد كان املها في القضاء على فورونتسوف وأطماعه كافياً لايجاد الحلف بينها وبين المستشار . فلم يكن من خلقها ان تترك عشيقة زوجها تكلفها الذل

ولكن « صاحبة الحيلة » لم تنس الحاضر في عنايتها باعداد المستقبل . لم يمض وقت طويل على الاتفاق بينها وبين المستشار حتى حملت فرنسا والنمسا ملك بولونيا على ان يطلب عودة بونياتوفسكي الى بلاده . فاضطر هذا الى ان يذهب الى وارسو . وكان هذه الحملة كانت موجهة الى حب كاترين والى كبريائها . فطلبت الى بستوچيف ان يطلب عودته

واضافت مغضبة انه يجب ان يعود سفيراً لبولونيا والا فلن تعقد روسيا الصلح مع بروسيا . لم يكن بستوچيف يميل بوجه من الوجوه الى ان يهين فرنسا أو النمسا فاظهر لها ما في هذا الامر من عسر . ولكن كاترين كانت تعلم ان الاتفاق الذي كان بينها وبين المستشار يجعل لها عليه سلطاناً عظيما فأصرت على طلبها

وعاد بونياتوفسكي منتصراً

غير ان الحزب الفرنسي النمسوي لم ينس هذه الاهانة فانتقم لنفسه بعد سنتين . علم هذا الحزب بما كان من الاتفاق بين الغراندوقة والمستشار فانبأ بذلك الزابت ودس اليها ان من اليسير ان يعثر بالدليل القاطع في اوراق بستوجيف . اشفقت الزابت على حياتها فأمرت في الحال بالقبض على المستشار . ووكلت الاستشارة الى فورونتسوف . اما بونياتوفسكي فقد قذفت به الزوبعة خارج روسيا

كانت هذه الحوادث بالقياس اليه مقدمة سلسلة من العظمة والاخطار والدسائس . فلما اصبحت كاترين سيدة روسيا وقد كانت لا تنسى اخدانها جعلته ملكا لبولونيا . ولكن يجب ان نضيف ان هذا الكرم العظيم لم يصدر عن ذكرى ملؤها الحنان وانما صدر عن سياسة متقنة : فقد كان يجب ان يضحى ببولونيا في سبيل رقي روسيا . نعم كان من العسير انقاذ بولونيا وقد اظهر بونياتوفسكي من الكفاءة والمهارة مقداراً موفوراً منذ صار ملكا ولكنه لم يكن رجل هذا المركز . فان رفعه الى هذه الدرجة فجأة ادى الى ما كانت تطمح اليه كاترين من اضعاف اشراف بولونيا فاضطرب الامر حتى لزم تدخل الاجنبي لتثبيت سلطانه . وكان هذا التدخل مقدمة لتقسيم البلاد . وظلت استغاثات ملك بولونيا بكاترين غير منتجة . فحاول بونياتوفسكي بنفسه السعي لديها اثناء سياحتها المشهورة في القرم . فلم تكن هذه المحاولة الا ذلاً جديداً . واستكشف العاشقان جميعاً ان حبهما قد مات منذ ثلاثين سنة وأن الهواء قد فرق رماده منذ زمن طويل

وفي التقسيم الثاني لبولونيا اصطنعت كاترين قسوة لم تكن من خلقها فاكرهت هذا الملك التعس على ان يخلع نفسه في نفس اليوم الذي منحته فيه التاج . بعد هذا الذل الاخير ذهب بونياتوفسكي الى روسيا وحاول ان يحتمل المحنة بصبر وجلد . ولكن شقاء بولونيا كان قد فطر قلب آخر ملوكها . فلم يستطع ان يحيي بعد فقد الحرية

— ٤ —

اضطربت كارين ايضاً بنفس الزوبعة التي حملت بونياتوفسكي . فقد جعل سقوط بستوچيف مركزها حرجاً جداً. نعم لم يمكن وجود أي دليل على الخيانة في أوراق المستشار . وقد رفض المستشار رغم التهديد بالموت الذي حولته اليزابت الى نفي ان يتهم شريكته في المؤامرة . فكافأته على ذلك فيما بعد . ومهما يكن من شيء فقد اصبحت كارين موضع الريبة . أبت الامبراطورة أن تراها وهددها بطرس واهانتها أسرة فورونتسوف وانصرف عنها القصر كله . ولا شك في انها استشعرت أشد الخوف على نفسها في مثل هذا البلد . فقد كان من الممكن أن تخشى كل شيء : السجن والعذاب وسيبيريا والموت

ولكن خلقاً كخلقها كان لا بد من أن يقاوم ويخرج من المحنة منتصراً

كانت « صاحبة الحيلة » كما كانت دائماً كفئاً لمركزها . كانت واثقة بأنها اذا مثلت بين يدي الامبراطورة استردت مكانتها . فقد كانت الامبراطورة مريضة ضعيفة قابلة للتأثير وكان من اليسير أن تعفو عنها . ولتحظى بهذه المقابلة أظهرت المرض ولزمت السرير اياماً . وأذيع انها في خطر . فتم رأي الامبراطورة على أن تعودها وفي هذه المقابلة استطاعت كارين ان تسترد العطف الامبراطوري . بل وصلت

الى اكثر من ذلك اجتهدت في صرف الامبراطورة عن زوجها الذي أخذ من ذلك اليوم يلجأ اليها في استرداد عطف الامبراطورة عليه

أفلتت من الخطر فما أسرع ما اصطنعت شجاعة خليقة بالاعجاب لتستأنف المؤامرة . وكانت غيبة بونياتوفسكي قد هدأت لوعة غرامها كما فعلت من قبل غيبة سولتيكوف . فما كاد بونياتوفسكي يسافر حتى ابتدأت بينها و بين جريجوري أورلوف صلة كانت لها في حياة كاترين نتائج غير منتظرة : لما ظهر هذا الشاب لاول مرة في القصر كان في الخامسة والعشرين أصغر من كاترين بخمس سنين (ويلاحظ انها كانت دائماً اسن من اخدانها) وكان هذا الشاب جميلا جداً. على ان أسرته كلها كانت تمتاز بالجمال البارع والقوة الهرقلية . وكانوا اخوة خمسة يحب بعضهم بعضاً حباً شديداً

وكان جريجوري أشدهم قوة واكثرهم سحراً وجمالاً وكان فاجراً مجرماً يقضي وقته في الميسر والفسق والسكر « مستعداً دائماً للمنازعة ولأن ينقض على من يخالفه » . وكان يمتاز بشجاعة عظيمة تبلغ التهور ولا يحفل بشيء

كان اول من تسمى باسم اورلوف جندياً عادياً في عهد بطرس الاكبر وكان رفاقه يسمونه النسر . قضي عليه بالموت للعصيان ولكنه سعى الى الحمام بهدوء ورباطة جأش اثارا اعجاب القيصر فعفا عنه . وقد ورث ذلك عنه جريجوري فقد اصابته جراح ثلاثة في موقعة زورندورف قبل ان يبرح موقفه . وكان دائماً مستعداً للمخاطرة ولأن يقامر بحظه ولا سيما ولم يكن يملك شيئاً يخشى عليه

فبعد ان استمتعت كاترين بلطف بونياتوفسكي ورقة حسه خلبها عنف التري وشدته لا سيما ولم يهذبه ذكاء ولا تربية . وان من الظلم لمثل هذه المرأة ان توصف بالخيانة لانها كانت تحب في كل واحد من اخدانها خصالا لم تكن لي من سبقه. وربما كان مما خلبها ايضاً « الفرق الأربع التي كان اخوة اورلوف يكادون يقبضون عليها بايديهم »

فان الخطر الذي تعرضت له ترك في نفسها أثراً شديداً . وكانت تعلم ان الكيد وحده يستطيع ان يجعل لها مركزاً يناسب مهارتها . وقد وجدت في جريجوري اورلوف اكثر من خدن ، وجدت حليفاً . ولم يكد يرى اورلوف ان الغراندوقة قد لاحظته حتى أظهر اعجابه بها وأظهره بعنف شديد خلب كاترين لانه وافق خطتها . اعجبها ان تسمع اسمها مقروناً باسم اورلوف في الثكنات حيث كان الضباط يعبدونه وحيث كان الجند مستعدين ليقتحموا النار من اجله . ثم لم تكن تخاف شيئاً فقد كانت الامبراطورة في هذا الوقت لا تحفل بالفضيحة وكان بطرس أشد اشتغالاً بعشيقته اليزابت فورونتسوف من ان يعنى بامرأته

وقد وجدت كاترين حلفاء غير اسرة اورلوف ، وجدت الاميرة داشكوف والكونت بانين . وقد اصبح هذا الاخير تحت حكمها أحد كبار الوزراء وكان صنيعة لبستوجيف الذي كان فكر فيه ليقدمه خدناً للامبراطورة . فقد كانت اليزابت نظرت اليه حيناً مع شيء من الميل ولكن كيداً ابعده عن القصر واشتغل سنين سفيراً لروسيا في البلاد الاجنبية . على ان اليزابت لم تنسه ولما احتاجت الى مرب

الغراندوق بولس وكلت ذلك اليه . وكان ميله الى بستوجيف ـ وان كان قد قدر سقوطه في الوقت المناسب فابتعد عنه ـ قد وصل ما بينه وبين كاترين التي كانت تحرص عليه لتأثيره في الامبراطورة

أما الاميرة داشكوف فقد كانت حليفة لكاترين من نوع آخر . ولدت هذه المرأة في السنة التي وصلت فيها كاترين روسيا . وكانت تفتخر بانها وحدها هي التي دبرت الثورة التي اعطت تاج بطرس لامرأته . وقد وصلت الى ان تقنع بذلك اشد الناس شكاً فيه ومنهم فولتير . ولكن كاترين اختلفت معها بعد ان لبست التاج فانكرت عليها كل اثر في هذه الحركة . ولم يكن فردريك الكبير اشد عدلا فقد كان يسميها ذبابة العربة

كانت هذه الاميرة من اسرة فورونتسوف وكانت اصغر اخوات اليزابت عشيقة بطرس . وهذا هو الذي حمل كاترين على ان تلتمس ودها لتكون ستاراً يخفي المؤامرة التي كانت يقصد بها القضاء على فورونتسوف وعلى بطرس جميعاً

تربت الاميرة داشكوف بعيداً عن اسرتها وهذا يوضح بعض الشيء انقلابها بسهولة عليها . وقد استرعت التفات الناس حين ظهرت في القصر لانها كانت لا تنطق بكلمة روسية متأثرة في ذلك بتربيتها في فرنسا . كانت تتقن الآداب الفرنسية وكان هذا اول صلة بينها وبين كاترين . فمنذ سافر بونياتوفسكي عجزت الغراندوقة عن ان تجد في القصر من تتحدث اليه في مسائل العلم والاجتماع وفي الفلسفة والتاريخ وكانت هذه الموضوعات عليها عزيزة

هكذا اصبحت كاترين وهذه الفتاة التي زوجت الى امير غير ذي خطر يسمى داشكوف صديقتين . وكانت هذه الفتاة تحقد على اختها صلتها بالغراندوق وكانت تفكر في ان الصلة بينها وبين الغراندوقة ستمكنها من هدم عظمة اختها

ولكن كاترين وجدت حليفاً آخر اجل خطراً ألا وهو في جنون زوجها وضعفه : كانت في اول هذه الدسائس تفكر فيما ينبغي ان تتخذ من الوسائل لتحتفظ لنفسها بالمكانة العالية التي تستحقها يوم تصبح زوجة الامبراطور . ولكن بطرس الذي خيل اليها انها اخضعته خيب آمالها بمجرد ارتقائه العرش. فقدكان عمره اذ ذاك اربعاً وثلاثين سنة ، وكان منذ عشرين سنة يخضع لسلطان خالته المذل ، فاسكرته سلطته الفجائية

بدأ فعقد صلحاً مع فردريك الكبير الذي كان قد سحق روسيا سحقاً . وكان لهذا العمل غير السياسي اثر سيء فقد صرف عنه الجيش . بل فعل شراً من هذا فاتخذ لجيشه اللباس العسكري البروسي . واكثر من هذا انه رد الى فردريك ما كان قد فقد معلناً انه مستعد لشهر الحرب على روسيا كلها اذا امره فردريك بذلك . بل ادب مأدبة اكراماً لهذه المحالفة فلما اراد ان يشرب النخب شرب « لمولانا الملك »

وبهذا صرف عن نفسه دفعة واحدة الجيش والحزب الذي كان متسلطاً في عصر الامبراطورة الراحلة والذي كان يميل الى النمسا

ولم يقف بطرس عند هذا الحد بل بغض نفسه الى الكنيسة .

فقد اعلن عزمه على الغاء الكنيسة الارثوذكسية واكراه رعاياه على اعتناق مذهب لوثير كاعزائه البروسيين وان كان ملحداً كفردريك. وابتدأ ذلك بمصادرة اموال الاكليروس

ولكنه على جنونه كان يعتقد ان احداث مثل هذا الانقلاب لن يتم بدون معارضة . ومن هنا حاول ارضاء الشعب بنوع من المهارة لم يكن ينتظر منه فأعلن انه يريد الاصلاح ولاجل ان يظهر حسن مقاصده ألغى الاستشارة السرية (وكانت محكمة اشنع من محاكم التفتيش) ورد المنفيين وعفا عن المعتقلين السياسيين

ولكن هذه الاصلاحات جاءت فجأة حتى عارض فيها أولئك الذين كان يجب ان ينتفعوا بها. الى هذا العهد كانت الثورات مقصورة على القصر اما الآن فقد ثارت روسيا كلها

سخط الشعب الذي كان لا يزال همجياً كما سخط الجيش والاكليروس لاصلاح لم تتخذ له مقدمات . وكان بطرس يعبث بالديناميت كما يعبث الطفل بالنار . فلم يكن بد من أن تهلكه هذه اللعبة . وقد نبهه فردريك عبثاً الى هذا الخطر الذي كان يتعرض له . فابتدأت الدسائس. وكان بطرس بعد بيده اللغم الذي كان يوشك ان ينسفه وهو بنفسه الذي أوقد فيه النار

لم يكد يصل الى العرش حتى القى هذا النقاب الذي كان اتخذه منذ ثلاث سنين نقاب الطاعة لامرأته . فانتقم من كاترين بكل ما نالته به من أذى واهانة واذلها بطرق عدة . كان يعلم أنها تحب الفاكهة

لخطر ان تقدم على مائدتها . وأظهر لخدينته أشد انواع المودة أمام الناس جميعاً حتى كان من اليسير أن يعتقد الاجنبي انها هي الامبراطورة. واعتز في ذلك بخيانات كاترين التي كان يظهر الى الآن انه يجهلها . فقد لفت بطرس الناس اليها مرة وهي حامل إذ صاح في مأدبة :

« الله يعلم من أين تأتي باولادها . ولكن هناك شيئاً لا شك فيه وهو أنهم ليسوا لي »

وفي مأدبة أخرى بمحضر من رجال القصر كافة اهانها بالفاظ وقحة وأمر بالقبض عليها فحمله عمه أمير هولستين على أن يلغي هذا الامر . ثم كان يضيف الى هذه التهديدات تهديداً آخر كان من شأنه أن يملأ قلب كاترين يأساً وهو أن يطلقها ويقترن بخدينته

فكتب سفير فرنسا الى فرساي يقول : « اني أعلم شجاعة الامبراطورة وعنفها ولا يدهشني أن تأتي أمراً جللا . وان أصحابها ليبذلون في تأييدها كل شيء »

وقد كانت كاترين فكرت قبل موت اليزابت في ثورة تقصي بطرس عن العرش ولكنها اطمأنت الى مالها على زوجها من السلطان وخيل اليها انها ستكون هي صاحبة الامر . وقالت للاميرة داشكوف : « اني أوثر ان اترك الزمن يعمل »

كانت تخشى العنف وما يخلق من الاعداء . ثم كان من العسير دائماً اعداد الثورة في روسيا . وكانت هي تنتظر أن يموت زوجها قريباً

ولكن ما أظهر بطرس من الاستقلال الذي لم يكن منتظراً خيب آمالها جداً . ومع ذلك فقد صبرت وحببها موقفها هذا الى الشعب

بمقدار ما كان بطرس مبغضاً

فبينما كان بطرس يحتقر روسيا ودينها كانت هي تجتهد الاجتهاد كله في ان تحتفظ بعادات بلدها الجديد وتتبع مع الدقة الشديدة طقوس الكنيسة الارثوذكسية التي كان يريد بطرس الغاءها

ولكن العنف الذي أخذ بطرس يضاعفه من يوم الى يوم حملها على أن تعمل . فدبرت على أثر الاهانات العلنية التي كان ينالها بها مؤامرة كان من شأنها أن تلقي اليها بمقاليد الامور . ولم يكن بد في أول الامر من الفوز بمعونة الجيش . فكلفت الاميرة داشكوف والكونت بانين أن يتواطأا مع ضباط الجيش في بطرسبرغ بينما كانت امرزة اورلوف تعنى بجنودها . وظل تاريخ الثورة غير مقرر لان كاترين تركت الامر للمصادفة



القيصر بطرس الثالث

— ٥ —

كان وقت هـذه الأزمة التي وصفتها كاترين فيما بعد في كتاب بعثته الى بونياتوفسكي وقت محنة شديدة

فلم يكن من اليسير تأليب الجيش دون تنبيه الحذر « ومع ان اربعين ضابطاً وعشرة آلاف جندي اشتركوا في المؤامرة فقد ظل الأمر مكتوماً ثلاثة أسابيع دون أن تظهر خيانة »

ثم أحس بطرس شيئاً من امر المؤامرة وهو يستعد لحرب جنونية كان يريد أن يعلنها على الدانمارك لينصر هولستين . فأمضى في الحال بلاغاً امبراطورياً يعلن فيـه عزمه على الطلاق وجحود الغراندوق بولس والاقتران باليزابت فورونستوف . وكان في هذا الوقت نازلاً في قصر اورنينبوم ومعه حرسه يتألف من خمسماية والف جندي من هولستين يقودهم الماريشال مونيخ المشهور ، ومعه في القصر خدينته ونساء من الحاشية وكان كل اولئك يريد أن يرافقه في الحرب . وكانت كاترين في بترهوف حيث أمرها بطرس أن تقيم وحدها أثناء غيابه

فعرفت كاترين لحسن حظها وجود البلاغ قبل نشره . فكان قرب الخطر حاملاً امرة اورلوف على ان تعمل دون تريث وان كانت خطتها لم تتم بعد

وكانت كاترين في بترهوف لا تعلم من أمرها شيئاً . حتى ايقظها

ذات يوم في الساعة السادسة صباحاً الكسيس أورلوف قائلاً وهو يدخل الغرفة : « لقد آن ان تنهضي . لقد أعد كل شيء للنداء بك امبراطورة ! »

فلبست ثيابها مسرعة ووثبت الى عربة كانت تنتظرها . وكانت الخيل قد قطعت عشرين ميلا في سرعة مدهشة فخرت صرعى في طريق بطرسبرغ . وساعدها الحظ ايضاً هذه المرة . اذ مرّ حوذي بعربته في هذه الساعة . فأخذت خيله وشدت الى العربة واستمر العدو

وصلت كاترين والكسيس اورلوف الى بطرسبرغ ومعها مرجل كاترين الذي التقطاه في الطريق فمضوا الى ثكنة فرقة اسماعيلوفسكي التي كانت الاميرة داشكوف قد أعدتها للثورة . فوجدوا اثني عشر رجلاً وطبلة دقت للحضور فوراً

كتبت كاترين عن ذلك : « عندئذ ظهر الجند . فقبلوا رجلي ويدي وثوبي ودعوني منقذتهم . ثم طُلب قسيس وبين يديه أقسم الجند وهم يصيحون بحياة الامبراطورة »

ثم انتقلت كاترين واورلوف الى فرقة سيميونوفسكي فكان بها المشهد نفسه . وحاول ضباط فرقة يقال لها پريوباچنسكي ان يخذلوا عنها رجالهم لأن رئيسهم كان من اسرة فورونتسوف . ولكن الجند ألقوهم في السجن واسرعوا الى كنيسة « سيدة قازان » حيث كان ينادى بالامبراطورة على روسيا كلها وحيث اعتذروا من انهم آخر من يقسم . ثم ذهبت كاترين الى قصر الشتاء حيث جاء رجال السلطة

المدنية وقدموا اليها الطاعة

وفي أثناء هـذا الوقت كان بطرس يجهل ما يجري وكان قد خرج من اورنينبوم الى بترهوف ليقبض على زوجه

فلما رآه الخدم اضطربوا واعترفوا بأن الامبراطورة قد فرت . ملأ قلبه الخوف فدخل القصر تتبعه حاشيته وأخذ يجول في غرفه الخالية وحدائقه صائحاً في كل ناحية « كاترين »

وانه لـكذلك اذ حمل اليه أحـد الفلاحين كتاباً من خادمه الفرنسي ينبئه فيه بأن زوجته قد نودي بها امبراطورة . فارسل ثلاثة من اهل ثقته الى بطرسبرغ ليتحققوا الخبر . فلم يعد اليه واحد منهم . ولـكن جندياً عائداً من اجازة أربعة وعشرين ساعة أكد له الخبر .

ولم يكن بطرس يستطيع أن يصدق فوز كاترين وهو على رأس جند هولستين ومعه كبار ضباط القصر

فأصدر الأمر الى وزرائه باعداد طائفة من البلاغات وتحصن في بترهوف . ولـكن الماريشال مونيخ وهو الوحيد الذي كان يثق به الامبراطور أعلن ان بترهوف لا تستطيع أن تثبت للحصار . وتضرع الى سيده ان يسافر الى كرونستاد . واقبل الليل قبل أن يتمكن من اقناعه . فتقرر اذاً ان يكون السفر في البحر فذلك أضمن واسرع . فلما وصلوا الى الساحل لم يجدوا الا زوارق قليلة للنزهة . وكانت الليلة حسناء وخليج فنلندا هادىء كأنه البحيرة . ألح مونيخ وأذعن له بطرس فركب الزوارق ومعه خدينته وبعض الخدم ونساء من الحاشية وعاد جند هولستين الى اورنينبوم ينتظرون أمره

وصلت الجماعة الامبراطورية الى كرونستاد في الساعة الاولى صباحاً فعلمت بأن القلعة قد سلمت لـكاترين . وكان الماريشال مونيخ يلح في النزول رغم انذار الحاكم مؤكداً ان الامبراطور يكفي ان يظهر ليملك القلعة فلن يستطيع الجند أن يصوبوا اليه نيرانهم . ولـكن بطرس كان قد ملـكه الخوف فلم يكن يرى في قلاعه وجنوده الى هذا الوقت الا لعباً

لم تكن النساء أقل منه خوفاً فأخذن يضرعن اليه في العودة الى بترهوف . فنصح له مونيخ ان يذهب الى ريفال حيث يجد من الجند ما يمكنه من الوصول الى بوميرانيا وهناك يجد الجيش الذي كان يريد ان يقوده في حرب الدانمارك .

فكان هـذا الجندي المجرب الذي مارس الاخطار يقول له :

« صدقني يا مولاي . لتجثون بطرسبرغ وروسيا كلها تحت قدميك في ستة اسابيع . أنا كفيل بذلك . ولك دمي ان كذبت »

ولـكن شجاعة بطرس وقوته كانتا قد بلغتا أقصاها . فما كان يفكر الا في ان يصل الى اورنينبوم ومن فيه من الجنود . فاخذت الزوارق طريق العودة . فلما وصل الى اورنينبوم وأمضى بقية الليل يجذف في خليج فنلندا علم ان امرأته تقود عشرين الفاً تغير بهم على اورنينبوم . وكانت على رأس الجيش قد امتطت فرساً واتخذت لباس قاذفي قنابل اليد من فرقة بريوباجنسكي ، الى جانبها وفي اللباس نفسه تعدو الاميرة داشكوف . وكان الجند قد خلعوا اللباس البروسي الذي أكرههم عليه بطرس والذي كانوا يمقتونه واتخذوا لباسهم القديم

الذي كان قد جاء من المانيا أيضاً ولـكن مضي الزمن انساهم ذلك

فضت هذه الانباء على آمال الامبراطور . فكتب في الحال الى كاترين يعرض عليها تقسيم السلطة . فلم تنزل الى جوابه . فقد مضى الوقت الذي كان مثل هذا العرض يرضيها فيه . ولم تمض ساعة حتى اضطر بطرس الى ان ينزل عن الملك من غير شرط . وعرفت كاترين هذا النبأ في بترهوف في القصر الذي كان قد سجنها زوجها فيه . فبعثت بانين يقوده اليها . فلما رآها بطرس اخذ يبكي بكاء الطفل ثم جثا امامها كخادم ذليل واخذ يقبل يدها ضارعاً اليها . ان تترك له خدينته وكلبه وخادمه الاسود وكمنجته . قالت كاترين : « ولـكني خشيت الفضيحة فلم اترك له الا الثلاثة الاخيرة وارسلته تحت رقابة الـكسيس اورلوف في قصر بديع يقال له روبشا الى ان يعد له مقام يليق به في شلوسلبرغ »

قال فردريك ساخراً : « ان بطرس ترك نفسه يعزل كما يترك الطفل المذنب نفسه يوضع في السرير »

— ٦ —

تمدحت كاترين بأن الثورة التي رفعتها الى العرش لم تكلفها اراقة قطرة من الدم . وأكدت دائماً أن موت بطرس الذي كان لثلاثة أسابيع مضت على الثورة انما كان نتيجة السكتة . ومن الحق أنها سارت سيرة كريمة جداً مع الذين أيدوا زوجها وقالت للماريشال مونيخ : « انهم لم يفعلوا الا واجبهم »

ولكن بطرس على ما كان عليه من ضعف يحول بينه وبين أن يكون مصدر شر لها لم يمت موتاً طبيعياً

ولن يعلم السبب الحقيقي لموته . أذاعوا في ذلك الوقت أنه قتل . وكتب سفير فرنسا الى فرساي يقول ان لديه البرهان القاطع على الجريمة

وقد شاعت روايات كثيرة . أشدها قبولا ان بطرس قد قدم اليه السم في كأس من نبيذ برغونيا . وهذا ما حدث بناء على رواية كستيرا :

لم ينف بطرس الى قصر روبشا كما كان قد انبيء . وانما حمل سراً الى موبسا وهو بيت خلوي أقام فيه ستة أيام لا يعلم به أحد ثم جاء الكسيس أورلوف وتبلوف فانباه بأن خلاصه قريب ودعواه الى أن يتناول الطعام معهما . ثم قدمت في الحال كما هي العادة اكواب ملؤها الخمر . وبينما كان تبلوف يلهي القيصر صب أورلوف في

الكاس سما أعده طبيب من أطباء القصر

فشرب القيصر الكأس الى آخرها . ولم يكد يفعل حتى ملكه ألم شديد . فقدم اليه أورلوف كأساً آخر ولكن بطرس قذفها في وجهه وأنبه على جريمته . ثم أخذ يضرع في أن يقدم اليه الابن ولكن الوحشين لم يقدما اليه الا كأساً ثانيـة وأرغماه على شربها .

وكان هناك خادم فرنسي شديد الاتصال ببطرس فأسرع حين سمع صياحه . فسقط القيصر بين ذراعيه قائلا :

« لم يكفهم تاجي فأرادوا حياتي أيضاً »

وتشجع الخادم وحاول الدفاع عن سيده التعس ولكن المجرمين طرداه من الغرفة

وفي أثناء هـذه الضوضاء دخل باراتنسكي وهو أصغر الامراء وكان يقود الحرس . وكان أورلوف قد ألقى القيصر على الارض ووضع احدى ركبتيه على صدره وأخذ يخنقه . هنا أحاط باراتنسكي وتيلوف عنق القيصر بفوطة وأتما خنقه . ولقـد استقبلت كاترين هذا الخبر استقبالا يشهد بما كان لها من مهارة التمثيل : اقبل الكسيس أورلوف يتصبب عرقاً قد علاه الغبار واختلطت ثيابه فانبأها بالامر وهي تستعد لاستقبال الحاشية . فتقرر ان يكتم الامر اربعاً وعشرين ساعة وظهرت الامبراطورة للحاشـية دون ان يبدو عليها اي تأثر . فلما كان الغد اظهرت الجهل ايضاً وامرت ان تنبأ بالامر على المائدة . فلما بلغها الخبر خرجت تنحدر دموعها وظلت أياماً لا ترى

ولقد احسن الشفاليه دون وصفها فيما كتب قبل ذلك بسنين

حيث يقول : « ان الغراندوقة وجدانيـة متقدة حادة الرغبات تؤثر فيك عيناها اللامعتان الباردتان كما تؤثر فيك عينا حيوان وحشي . لها جبهة عريضة قد كتب عليها مستقبل ملؤه الفظائع . مؤدبة لطيفة ولكنها لا تكاد تدنو مني حتى اضطر الى ان اتقهقر . انها لتخيفني »

— ٧ —

اذا كانت قصور اوربا قد احست شيئاً من التردد (وهذا موضع شك) في ارتقاء كاترين العرش فمن المؤكد انها لم تظهر منه شيئاً . على انها لو فعلت لما زادت على اسخاط امبراطورة كان من الخطر ان تسخط . فما اسرع ما اقبل السفراء فهنأوها

على ان كاترين كانت بعيدة جداً من ان تثق بثبات عرشها . اما الشعب الذي لم يكن يؤبه له فقد كان ينظر اليها كقاتلة زوجها . فقد كان بطرس استطاع ان يكسب نفسه شيئاً من الشهرة بما احدث من اصلاح

وقد عارضها الاشراف لانها من اصل الماني . وظل الاكليروس فاتراً . اما الجيش الذي تعود ثورات القصر فقد اسرع فأدى الطاعة . ومع ذلك فلم ينس احد ان هناك في قلعة شلوسلبرج آخر ابناء بطرس الاكبر وهو الغراندوق ايفان الذي نزع منه التاج وهو في المهد . واكثر من هذا فقد كان هناك من يحل محله ، ولو ان كثيرين كانوا يعتقدونه صحيح العقل رغم الاشاعات ، قد كان هناك الغراندوق بولس ابن كاترين نفسها . وقليل من العمل كان يكفي لانجاح مؤامرة في سبيله

عرفت ذلك كاترين وكانت لا تخدع في مثل هذه الامور فسعت لاقصائهما عن العرش

واصطنعت في هـذا الامر مهارة مدهشـة في اخفاء عواطفها . امضت عشر سنين تتعلم فن الحـكم فأتقنته ولقبت « كاترين العظيمة »

احتفظت باصلاحات بطرس لترضي الشعب . ولاجل ان تهدىء الاشراف اصطنعت الـكرم والسخاء مع ذوي المكانة الذين ماشوا في رقيها الى العرش وضحت في سبيل منافعهم بمنافع بعض حلفائها الذين لم تبق محتاجة الى مؤازرتهم او تأثيرهم . ومن هنا لم تتردد في التضحية بالاميرة داشكوف فردت بستوچيف من النفي . وترضت الاكليروس فردت اليـه الاموال التي كان قد صادرها بطرس واظهرت نفسها حامية الـكنيسة الارثوذكسية . وهاجت عواطف الوطنية في نفوس الجيش والشعب بمهاجمة الترك والاجتهاد في تقسيم بولونيا

قتل ايفان في سجنه بشلوسلبرج دون ان تشترك في ذلك كاترين غالباً وان كانت قد اتهمت بالجريمة . ولـكنها كانت قد امرت بقتله عند اول محاولة لاخراجه من السجن فلا يبعد ان يكون لهذا الامر اثر في الجريمة . فأما ابنها الغراندوق بولس فما احبته قط ولقـد اخضعته لاشد المراقبة واصبح اشد الناس لها عداء

وما كانت كاترين لتظفر بهذا كله وحدها ولـكنها كانت تعترف بآل اورلوف الذين قدموا اليها التاج . وكان اعـترافها لهم بالجميـل مضاعفاً حبها لجريجوري اورلوف. واذ كانت حرة الآن في ان تظهر له حبها فقد اندفعت في شهوتها اندفاعاً لم تعهده من قبل . ولم يتأخر

اورلوف في ان يستفيد من هذه المكانة العليا . فعامل كاترين معاملة خالية من اي كلفة . وحملها على ان تعطيه في العشر سنين التي كان فيها صاحب السلطان سبعة عشر مليون روبل وقصوراً وجواهر . وكانت اسرة اورلوف في املاكها سيدة مطلقة السيادة يخضع لها اربعون الف فلاح . ووضعت كاترين لجريجوري اورلوف لقب « الخليل الاول » كما كان يستعمل في قصر فرانسا لقب « الخليلة الاولى » لعشيقة الملك . ولم يعرف التاريخ ملكة اعلنت عشقها بهذه الصورة . ولاجل ان يظهر اورلوف ما كان له من العطف الامبراطوري فقد كان يحمل صورة مصغرة لكاترين في اطار من الماس . وكان هذا الامتياز مصدر عداوات كثيرة خلقت له . ولكن الحظ والطمع اسكراه . فقد ظن انه اذ كان قد اعان كاترين على ان تصل الى العرش فقد يستطيع ان يرقى معها كزوج لها . ولم تكن كاترين تكره ذلك . ولكن بانين حذرها من هذا الطيش الذي قد يضيع عليها التاج . قائلا :

« ان الامبراطورة تستطيع ان تفعل ما تشاء ولكن مدام اورلوف لن تكون امبراطورة روسيا »

سخط اورلوف حين رفض طلبه واحست كاترين ان المنفعة وحدها هي التي كانت تقوده فأتعبها ما كان له ولأسرته عليها من منّ

فلم تخش ان تسخط رجلاً قوياً كهذا الرجل لانها كانت تعلم انه لن يستطيع ان ينتقم وانه اذا فقد رضا الامبراطورة فلن يكون

له معين . ومع ذلك فقد آثرت الحيطة والتكتم لتخلص منه . كانت تركيا قد انهزمت انهزاماً منكراً امام روسيا وكانت تطلب الصلح . فكلفت كاترين خليلها ان يفاوض فيه . سافر اورلوف الى فوكساني تتبعه حاشية ملكية دون ان يشعر بما تدبر كاترين . فودعته وهي تدعوه « ملك الصلح »

في اثناء هذه السياحة اظهر جريجوري اول علامات هذا الجنون .. جنون العظمة — الذي اوقعه فيه الطمع والسلطان

لم يكد ملك الصلح يصل الى فوكساني حتى قطع ما كان قد بدأ من المفاوضات مع تركيا ونازع قائد الجيش الروسي معلناً انه سيهدم مجده حين يتولى مهاجمة القسطنطينية

فلما وصل الى ياسي ليلاحظ الاستعداد للحرب اتخذ من مظاهر الابهة والجلال ما بهر الاسيويين انفسهم مع انهم قد اعتادوا الشيء الكثير من ابهة امراء الشرق . فلبس في بعض الاعياد بزة موشاة بالماس قدرت بمليون روبل

وانه لفي هذه المظاهر الضخمة اذ نعي اليه من بطرسبرغ انه لم يمض على سفره اسبوعان حتى انزلت كاترين في مكانه من القصر ضابطاً شاباً يقال له فاسلتشيكوف وكان أسمر رائع المنظر . فنبهته صدمة هذا النبأ الى مركزه الحقيقي

وما اسرع ما استرد قوته ومضاءه اللذين جعلا كاترين امبراطورة منذ عشر سنين . أسرع في السفر الى بطرسبرغ ولم يسترح الا على الف فرسخ ليغير الخيل

على ان هـذه المحاولة اليائسة التي هي خليقة باورلوف لم تجد شيئاً • وقفه الجند على بعدٍ من مدينة بطرسبرغ ليخضع للحجر الصحي وتعللوا بأنه قادم من بلاد فيها الطاعون • وكل ما أمكن أن ان يسمح له به هو أن يذهب الى القصر الامبراطوري في جاتشينا وكان قد اعد له • وقع اورلوف في الشرك • سلب جميع مظاهر الشرف وأذن له ان يسافر عناية بصحته • وقد تركت له الملايين والارض والجواهر ولم يؤخذ منه الا الصورة ذات الاطار الماسي . أثقلته هذه الصدمة فلم يحاول أي مقاومة . فقد كان أقل من كاترين قوة وعقلاً فشعر ان المقاومة ضرب من العبث. فكان خضوعه الحلو المؤثر باعثاً للحنان في قلب كاترين • فاذنت له بعض وقت ان يعود الى القصر وعاملته كعادتها معاملة رفق وكرم • وكسبت له لقب امير في الامبراطورية الرومانية المقدسة وجددت له اكثار العطايا ولـكن نجمه كان قد أفل

كتبت كاترين في ذلك الوقت الى صديق لها : « اني مدينة بالشيء الـكثير لآل اورلوف ولقد اكثرت عطفي عليهم وسأستمر على حمايتهم فقد يمكن ان انتفع بهم ولـكني استرجعت حريتي • فأنا اريد ان احيا منـذ اليوم كما احب مستقلة الاستقلال كله • اما الامير جريجوري فله ان يفعل ما يشاء • له ان يذهب ويجيء ان يصطاد ويشرب ان يلعب ويتخذ الاخدان »

ادهش جريجوري الناس جميعاً • فمع انه كان فاجراً متعوداً

كل انواع اللذات فقد كلف بابنة عم له كانت في التاسعة عشرة ·
والزواج محظور في روسيا بين أبناء العم . ولكن كاترين أعانته
فأذنت لهما بأمر خاص أن يقترنا رغم القانون المدني والديني . وعينت
الاميرة من وصائف الامبراطورة واهدي اليها والى زوجها قصر في
بطرسبرغ عاشا فيه معتزلين . صفا لهما العيش أعواماً ثلاثة ثم أصاب
الاميرة مرض الهزال وجاهد جريجوري القضاء عبثاً : طاف بامرأته
في أوربا كلها يلتمس الصحة ومهرة الاطباء . ولكن امرأته ماتت في
لوزان ودفنت بها

عاد جريجوري الى بطرسبرغ وقد كاد يصبح في عداد الموتى
فلم يبق فيها ستة أشهر حتى مات مجنوناً منفطر القلب

وفي أثناء جنونه كان يرى دائماً شبح بطرس يحاول ان
ينتقم منه



بوتمكين

—٨—

في هذا الوقت ظهر الامير بوتمكين دي توريدا أو باتيومكين كما يسمونه في روسيا . كان نابغة أو مجنوناً ولعله كانهما معاً : كان أثره في حكم الفرد في روسيا كاثر رشليو في حكم الفرد في فرنسا . لعب في روسيا دوراً يعدل خطر الدور الذي لعبه أمير دانمارك في قصة هاملت

وُلد بوتمكين في اسمولنسك وهي مدينة كبيرة من مدن الاقاليم على نهر الدنيبر وكان أصغر من كاترين بعشر سنين

لا نعلم من حياته الاولى الا قليلا . نشأ في أسرة قديمة فقيرة عجزت عن اعداده لعمل مثمر فأعدته للكنيسة . ومع انه لم يكن خلق للكهانة فقد خلبته مرات حتى فكر في ان ينتظم قسيساً

ولكن الطمع انتصر فاقترض اربعمائة روبل لم يردها الى صاحبها حتى بعد ان عبث بالملايين ، وسافر الى بطرسبرغ

وهنا توسل ببعض النساء حتى وصل الى مركز ضابط في الفرقة التي كان يقودها جريجوري أورلوف . واذ كان تقدمه ليس موقوفاً الا على عمله فقد اجتهد في أن يلفت رؤساءه الى نفسه . وكان اورلوف في ذلك الوقت يعد الثورة ليرقى بكاترين الى العرش وكان يبحث عن معونة اتباعه كافة فآزر بوتمكين وسر هذا بعطف رئيسه فأعانه ما استطاع

ارتقى جميع الضباط الذين اشتركوا في الثورة . وكان بوتمكين قد لفت كاترين بنوع خاص يوم مشت الى زوجها على رأس الجيش فقد قدم اليها ريشة من قبعته لتزين بها قبعتها

فلما انتهت الثورة عينته أميناً في القصر . ومنذ هذا اليوم فكر بوتمكين في أن ينزل منزلة جريجوري اورلوف . وكان الكسيس أورلوف يشعر بارتقائه في عين الامبراطورة شيئاً فشيئاً فأراد أن يرده الى مكانه ونازعه ذات يوم بينما كانا يلعبان البلياردو ثم اشتد بينهما النزاع ففقأ الكسيس خطأ احدى عيني صاحبه بمقبض البلياردو

أثقلته هـذه النكبة التي لم تشوه وجهه كثيراً فترك القصر وعاد الى سمولنسك . في هذه المرة احدثت الغيبة في نفس كاترين أثراً لم تكن تحدثه من قبل ، احست الحاجة الى بوتمكين وغلت حتى كتبت اليه

ولم يكن هذا الشاب في حاجة الى تشجيع اكثر من هذا . فلم تكد تشفى جراحتـه حتى عاد الى القصر وأخـذ يسعى الى غايته مضاعفاً الجـد والنشاط . فلما رأى ان نجم اورلوف قد أخـذ يأفل استخدم فاسيلتشكوف ليعجل سقوط خصمه وكان يعتقد ان ليس من هذا السقوط بد . ثم كان من اليسير عليه أن يبعد هذا الشاب الذي لا خطر له ليأخذ مكانه

ولم يكن قد قدر للحب الذي أشعله في قلب كاترين ان يطول امده . ولـكن الذي أخذ مكانه في قلب كاترين لم يخفه بوجه ما . فقد كان بوتمكين يبحث عن السلطان لا عن الحب ، وليس من الناس من فهم مثله هذه الطبيعة المعقدة ـ طبيعة كاترين ـ هذه الطبيعة التي كانت جهاداً بين الطمع والشهوة . ولاجل ان يحتفظ بسلطانه لم يكن بد من أن يدبر هاتين القوتين : من ان يدبر عقلها متملقاً طمعها ومن ان يدبر قلبها معيناً على قضاء ما تصبو اليه من شهوة

لم تكد كاترين ترقى الى العرش حتى فكرت في كثير من جلائل الاعمال ولـكنها شعرت انها لن تستطيع وحدها ان ترقي روسـيا . فجمعت حولها ناساً توسمت فيهم القدرة على اعانتها . وميزت من بينهم بوتمكين لاول مرة شهدته . فقد كان الرجل الذي يلزمها وقد سرها

استكشافها اياه فقدمت اليه نفسها والامبراطورية. فلما مضت على ذلك أعوام ثلاثة بدأت تتصرف عنه . وقد كان من اليسير ان يسقط بوتمكين كما سقط أورلوف لو وجدت كاترين من يستطيع ان يخلفه . ولكن روسيا كانت شديدة الفقر الى الاذكياء . ومن هنا انصرفت كاترين عن بوتمكين ـ الخدن ـ ولكنها احتفظت بالوزير

كان هذا الوقت في حياة كاترين وقت فجور لا حد له . وكان بوتمكين يظهر الجهل . ولقد قال فولتير وقد سحرته صفات الامبراطورة : « اعلم انهم يأخذونها بشيء من العبث والمجون ولكن هذه امور خاصة لا اعرض لها »

ولقد قالت كاترين نفسها ضاحكة يوماً من الايام : « ان اخداني حين يشاركونني يعدون انفسهم لاحسان خدمة روسيا »

وكان اخلاؤها «الصغار» الذين كانوا يسمون بذلك تفريقاً بينهم وبين بونياتوفسكي واورلوف وبوتمكين كثيرين جداً . كانوا يمتازون بالجمال وقلة الخطر وكانوا جميعاً الا القليل شباناً احداثاً . ولم يكن يكاد احدهم يختفي حتى يظهر من يخلفه . وكان مصدر السخط على هؤلاء الاخلاء احد امرين : اما ان تسأمه كاترين واما ان يخطىء هو فيحاول ان يخاف بوتمكين . وكان شبان روسيا جميعاً يحلمون بالفوز بعطف الامبراطورة فقد كان كفيلا بالثروة . وكان كل واحد منهم حتى احقرهم يستطيع ان يطمع في هذا العطف لان الجمال وخده كان كافياً

ولم يكن من هؤلاء الاخلاء الا اجنبي واحد هو زوريتش . كان

همجياً غير مهذب ولكنه كان جميلا جداً حتى تحدث العجائز بجماله في عصر اسكندر الاول وقد حاولت كاترين تهذيبه ولكنها لم تفلح

ولقد وجدت شيئاً من الصعوبة في ان تخلص منه فقد هددها « بأن يقطع أذني بوتمكين » ولم تقنعه الا بعد ان اعطته مليونا ونصف مليون روبل وارضاً تغل عليه مائتي الف روبل في السنة . فرضي حينئذ بأن يترك « سيدته » كما كان يسمي الامبراطورة . ولقد كان احسن استعمالا لثروته من سواه فأسس مدرسة حربية تخرج مائتي ضابط من الفقراء وكان لهذه المدرسة نفع عظيم

خلفه كورساك الذي غير اسمه فجعله رمسكي كورسا كوف وكان ارستوقراطياً ولكنه كان جاهلا

وكان بوتمكين يتقبل هدية من الامبراطورة وخليلها كلما قدم اليها خليلا جديداً فجعلت له الامبراطورة في هذه المرة مرتباً سنوياً قدره ٧٥٠٠٠٠ روبل ولكن رمسكي كورسا كوف كان احمق فداعب احدى وصائف الملكة ولم تكن اقل منه حمقاً وائتمرا الاسقاط بوتمكين . فأبعدته كاترين

وكان اشد اخلائها لطفاً لانسكوا . كانت الامبراطورة تحبه ولم يكن حب الشاب لها اثراً من آثار المنفعة

كانت سنه اثنتين وعشرين سنة وكانت الامبراطورة في الواحدة والخمسين . وكان من اسرة حسنة ولكنه كان فقيراً وفقيراً جداً حتى انحصرت ثروته في خمسة اقمصة

وكانت تربيته كتربية غيره قد اهملت ولكنه حاول ان يتعلم .

وقد كتبت كاترين الى جريم انه قرأ الشعراء جميعاً في شتاء والمؤرخين في شتاء آخر . وكان يقاسم كاترين حبها نفائس الاشياء وانفق كثيراً في جمع الجواهر ونفائس النقود والصور . وقد حببه لطفه ودعته الى الشعب . لم يكن له طمع ما وكان يكره السياسة . فلما مات بعلة الهزال بكاه بوتمكين كما بكته كاترين . ورفضت الامبراطورة ان ترى احداً خمسة عشر يوماً وعلقت اعمال الدولة . بل كان من الشاق جداً على بوتمكين ان يدنو منها . ومع ذلك فقد استطاع ان يلقاها فبكى معها وقدم اليها كتاب زمرمان في «الوحدة» لتقرأه . وقد امرت كاترين فاقيم على قبر الشاب بناء بديع في تسارسكو سيلو بازاء نوافذها . ولكن لم تمض اشهر ثلاثة حتى حل خدن جديد محل لنسكوا الذي اعطته كاترين في اربع سنين اكثر من سبعة ملايين روبل

لا يعرف التاريخ مثيلا لسخاء كاترين فقد كان سخاء شارل الثاني في انجلترا وبعض ملوك فرنسا المترفين قليلا بالقياس اليها . فقد كلف اخلاؤها روسيا في حكم طال اربعاً وثلاثين سنة ما يقرب من مائة مليون روبل . من هذا المقدار الضخم تناول بوتمكين وحده خمسين مليوناً . على انه قد دفع ثمن هـذا فاعطى روسـيا القرم والقوقاز وخضد شوكة الترك وجعل البحر الاسود بحيرة روسية ونظم الجيش الذي انقذ روسيا من نابوليون

ولم يكن هناك حد لعدم الكلفة في سيرة بوتمكين . فقد كان ربما ظهر في مجلس الدولة واستقبل السـفراء وجسمه لا يكاد يكون مستوراً . كان هذا الغلو يضحك كاترين ولـكنها كانت لا تستطيع

ان تنقده او تنكر عليه فان فعلت سخط ومضى في سخطه حتى ينذرها . وكان الذين يرون في كل يوم مثل هذه الخصومات السرية يعتقدون ان بوتمكين يعرض نفسه لخطر الموت . ولكن كاترين كانت تعودت ألا تمضي امراً وهي مغضبة . واحتفظ بوتمكين بالسلطان دائماً

وكان الامير دي ليني يقول فيه « أنه نابغة ليس غير »

والكونت دي سجير الذي كان يكرهه يؤكد مع ذلك « أنه ضخم كروسيا »

اما بوتمكين فكان يصف نفسه « بالطفل المستمتع بعطف الله »

مات فجأة في ابان مجده . وجد الموت في طريق خالية وكانت آلامه شداداً حتى عض الارض . وقد جزعت كاترين لهذه النكبة . وكتب القائم بأعمال السفارة الفرنسية يقول : « لما بلغتها الفاجعة فقدت الشعور وصعد الدم في رأسها حتى لم يكن بد من فصدها »

وقد وصفت حزنها الجريم فيما يأتي :

« أصابتني صدمة فظيعة أمس . لقد مات البرنس بوتمكين دي توريدا تلميذي وصديقي ومعبودي . يا للحسرة ! ما أشد حاجتي الان الى أن أكون صاحبة حيلة »

فلما مات بوتمكين أخذت نجمة القطب أيضاً تأفل . أصابتها سكتة لخمس سنين مضت على موت بوتمكين في ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٦ وقد نيفت على الستين وبعد أن حكمت أربعاً وثلاثين سنة

بعد أن مات بوتمكين كانت كاترين بلاتو زوبوف آخر الاخلاء

الذي منحته منصب أمينها الراحل . وكانت تسميه أكبر نوابغ روسيا . وكانت عبادتها له من الشدة بحيث منحت ثروة ضخمة لخادم التقط منديله . كانت في ذلك الوقت في الثانية والستين وكان زوبوف أصغر منها بأربعين سنة . وقد استأثر طمع شديد بهذا الشاب الذي لم يكن له حظ ما من الكفاية . فلم يكتف بانتهاز الفرصة ليغني نفسه وأسرته على حساب روسيا وانما أراد ايضاً ان يكون له سلطان سابقه . كان وقحاً مع الناس جميعاً حتى مع الغراندوق بولس

ومن هنا كان سعيداً جداً حين ارتقى بولس الى العرش فلم يصبه باكثر من النفي . ولكن بولس عفا عنه لسوء حظه

فلما كانت الثورة التي نزعت التاج عن رأس بولس لأربع سنين من هذا الحادث كان بلاتو زوبوف أول من أهان الامبراطور حين صدمه بعلبة ذهبية من علب النشوق . ثم أعان على خنق الامبراطور بحمالة سيفه

وفي أثناء هذا الوقت كان ابن بولس ينتظر في الغرفة المجاورة أنباء الجريمة التي كان أعدها . كذلك ارتقى اكبر قياصرة الروس اسكندر الاول على العرش مضحياً بأبيه كما ضحت كاترين بزوجها

وقد كان اسكندر حفيد كاترين وكانت تؤثره وتنفرد بتربيته

وانفردت كاترين بين الذين اشتركوا في هاتين الجريمتين بان ضميرها لم يخزها ندماً ولا اسفاً . فقد مات اورلوف واسكندر مجنونين بعد مجد ضخم وكانت جرائمهما تروعهما في هذا الجنون

أما زوبوف فقد اشترك في مقتل بولس طامعاً في عطف اسكندر وان ينزل منه منزلة بوتمكين من كاترين ولكنه لم يظفر بشيء اعتزل في قصر موحش وأمضى حياة سيئة يروعها خوف الموت والفقر فما كان يسمع لفظ الموت الا اعتزل الناس أياماً وأبى ان يرى احداً ما ٠ اشتد بخله فلما مات وجد في أنفاقه أكثر من عشرين مليون روبل